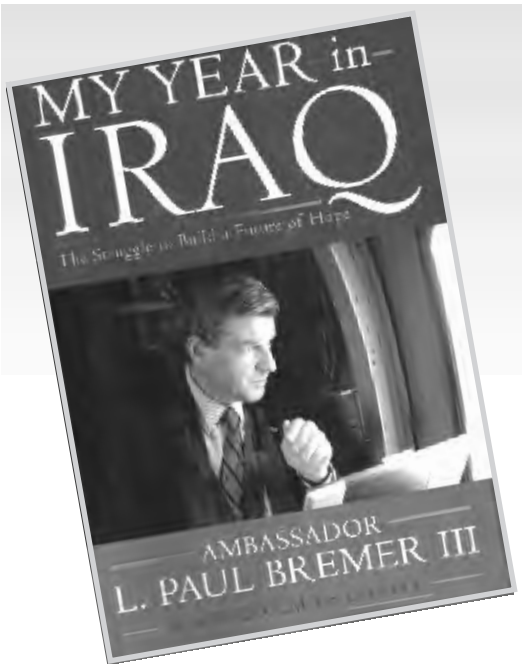

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة السادسة)

فيما بعد، كنتُ أجلسُ في مركز الاتصالات في مقرات القائد الأرضي لقوات التحالف، الفريق في الجيش ديفيد مكيرنان، قرب مطار بغداد الدولي. كنا وسط مؤتمر لا سلكي، عبر الفيديو، يربط بغداد بالقيادة المركزية المتقدّمة في قطر، بوزير الدفاع رامسفيلد في البنتاغون. قبل أن أبدأ الكلام عبر التلفون الفضائي، كنت قد هنّأتُ مكيرنان، وهو أمريكي من أصل أيرلندي، أشقر الشّعر، على النصر الرائع الذي حقّقته قواتُ التحالف، غير أنّ عينيه الزرقاوين كانتا تكشفان عن إرهاق شديد.

بدا دون رامسفيلد فيلسوفاً حيال القصّة المسرّبة. لا شكّ أنه تحمّل الكثير من المسرّبين وأخبارهم. "بالتأكيد لن تساعدنا هذه القصة،" قال بنبرة تضمينية متهكّمة. "لكنّ ما يقلقني أكثر هو أنّ قواعد المواجهة بدأت تضمحل خلال تداولها وفق تسلسل القيادة."

كانت قواعد المواجهة، التي تعاملت من خلالها قواتنا مع العراقيين، قد بدأت تختفي.

خلال الغزو، الذي شهد هجمات واسعة من فدائيي صدام- وهي قوات غير نظامية في لباس مدني- كانت وحداتنا مخوّلة بالدفاع عن نفسها، وإطلاق النار على أي مدني يحمل سلاحاً. الآن توجد ميلشيات وعصابات إجرامية مسلّحة، تجوب شوارع أكثر من مدينة عراقية، ولا يملك قادة قوات التحالف تصوراً واضحاً عن كيفية الردّ.

الجنرال جون أبي زيد، نائب قائد قوات التحالف في قطر، كان يتفق مع رامسفيلد بشأن ضعف قواعد المواجهة. قال "اعتباراً من هذا اليوم، سوف أعيدُ بثّ طاقة جديدة في تسلسل القيادة، لأضمن أنّ لدينا قواعد مواجهة فعّالة، وأنّ كل جندي ورجل مارينز يفهمها،".

لا أحد ذكر مسألة فتح النار على المتسبّبين بأعمال السلب، لأنه يوجد تحفّظ انضباطي في هذه المؤتمرات اللاسلكية، عبر الأقمار الصناعية.

"نحتاج إلى مراجعة لطبيعة المهامّ لنرى أي منها هو المعقول،" تابع أبي زيد، مشيراً إلى الشبكة المفصّلة من المهام، والأهداف، والأوامر التي تتحكّم بكل مناحي العمليات العسكرية.

"ما الذي استنتجه حتى الآن؟" سأله رامسفيلد، فيما كانت نبرته الثابتة تُسمع بوضوح عبر الوصلة الفضائية.

"حيث كانت لنا دوريات أمن نَشطة،" شرحَ أبي زيد،" كانت الأوضاع نسبياً هادئة."

"نَشطة؟" سأل رامسفيلد. كان امتعاضه من المصطلحات العسكرية الغامضة معروفاً جيداً.

"دوريات متحرّكة، سيدي الوزير،" شرح الجنرال، ثم أسرع ليوضّح. "عربات مدرّعة، سيارات (هامفي) مسلّحة، دوريات راجلة. .."

"ما ندعوه نحن المدنيين استعراض قوة،" أضفتُ.

"نحن الجنود نحبّ أن نظنّ بأنّ ثمة بعض العلم ينطبق عليها، جري،" قال أبي زيد، مخفّفاً النبرة. "بغضّ النظر عن التسمية، إن الحضور الأكثر نشاطاً للقوات في الشارع يخلق انطباعاً ما. ليس الأمرُ استعراض قوة بقدر ما هو متعلق بالإجراءات والأولويات التي يتبعها الجنود."

تذكّرتُ أفواج العربات المدرّعة حول الساحات وتقاطع الطرق الرئيسية، خلال انتقالي بالسيارة على طريق المطار. كتيبة مدرّعة، مؤلفة من الدبابات، وعربات برادلي المقاتلة، وسيارات الهامفي، التي تنصبُ أسلحةً رشّاشة، يمكنها بالتأكيد أن تحرس هدفاً ثابتاً. ولكن على بعد تقاطعين، يمكن أن يكون اللصوص والمجرمون المسلّحون ينهبون مخزن أطعمة حكومياً، أو متجراً، ويفرّوا دون عقاب.

"سيدي، الوزير،" قال أبي زيد، "ربما آن الأوانُ لإعادة توزيع القوات."

بدا أننا بدأنا نحقق بعض التقدم، قلتُ في نفسي، مسجّلاً الملاحظة في دفتري.

"شيءٌ واحد أكيد،" قال أبي زيد. "لن تكون القوات في وارد إعادة الانتشار خارج العراق حتى يترسّخ الأمن في البلاد."

كان هذا هو الاعتراف الأول بأن القوة العسكرية مطلوبة لوقف أعمال الفوضى في الشوارع.

لاحقاً، تحدثتُ من مكتبي إلى أبي زيد، في مقرّه في الدوحة، قطر، عبر تلفون آمن.

"شكراً لدعمك لنا مع وزير الدفاع، جون،" قلتُ. "إنه لأمر مطمئن كثيراً أن نعرف بأن القوات لن تعود إلى الوطن، مادامت الحالة الأمنية لا تزال مهزوزة."

"إننا نحضّر لقواعد مواجهة جديدة، وحق أقوى لتسيير دوريات الآن،" قال. "سوف يحمل مكيرنان لك شيئاً غداً."

"أقدّرُ ذلك،" قلتُ. "أنا لا أبحث عن المستحيل، ولكن القيادة المركزية، لا تملك دبابات أبرامز أو عربات برادلي كافية لتحرس كلّ مخفر شرطة في البلاد. نريد أن نقنع الشرطة العراقية بالعودة إلى مراكزها. أحتاج إلى كل من ترسله من بوليس عسكري أمريكي، وبالسرعة التي تقدر عليها."

صمتَ أبي زيد للحظة. "يمكنني أن أتدبّر حوالي ٤٠٠٠ آخرين." وأضاف أنه يعتقد بأنهم يستطيعون أن يبدأوا النقل الجوي لهؤلاء من أوروبا والولايات المتحدة، خلال ثماني وأربعين ساعة.

ثمة حوالي ١٤٠٠٠ شرطي عراقي، غير موجودين في مواقعهم، في بغداد. إن استبدالهم بأربعة آلاف من جنود الجيش الأمريكي، ممن يرتدون خوذ كيفلار، ودروع صدر واقية، ويحملون بنادق (M-16) أو يجثمون خلف أبراج الأسلحة الرشاشة، في سيارات الهامفي، لابدّ أن يثبط من عزيمة وحماس هؤلاء اللصوص.

"شكراً لك، جون."

أصدر التلفون هسيساً، ثمّ خلد للصمت.

إنّها انعطافة غريبة للأحداث. موظّفون ناقمون سرّبوا كل صغيرة وكبيرة من اجتماع سري للغاية معي إلى جريدة التايمز. ودفعت القصةُ رامسفيلد والقيادة المركزية بدفع الدوريات إلى شوارع بغداد بشكل أكثر قوة. والآن وافق الجيش على تقديم قوة إضافية لاستبدال وتدريب الشرطة العراقية.

سمعتُ انتقاداً من موظفي (مكتب إعادة الإعمار والمساعدة الإنسانية) مفاده أنني لا أغادر القصر الجمهوري بما يكفي؛ ولمحاربة هذه الصورة، قررتُ أن أزور، يومياً، مؤسسة عراقية واحدة على الأقل، أولاً في بغداد الكبرى، ومن ثم ما يقع أبعد من ذلك.

في صباح الخميس، قابلني مستشار وزارة الصحة في سلطة التحالف المؤقتة ستيف براونينغ، وسعيد حقي، الطبيب الأمريكي من أصل عراقي، الذي أتى مع مكتب إعادة الإعمار، في نيسان، ويعرف الوزارة جيداً، في مستشفى الأطفال المركزي. حقّي هو واحدٌ من مئتي عراقي منفي، ممن ينتمون إلى مختلف مراتب الحياة، وجاءوا من كل أنحاء العالم، ليخدموا وطنهم الأم، في منظمة سُميت مجلس التطوير وإعادة البناء. وقد ترأس المجموعة أمريكي عراقي موهوب هو عماد ضياء، الذي كان على اتصال مباشر معي.

كانت المستشفى، المؤلفة من عدة طوابق، والمشادة وسط مدينة الطب، تستحضر إلى الذهن، من خلال طرازها الإسمنتي، فترة الازدهار النفطي خلال فترة السبعينيات. غير أنّ الداخل لم يكن يماثل الهيكل الخارجي العصري.

مدير المستشفى، نزار العنبكي، قابلنا في الداخل، في فسحة لا تبعد كثيراً عن الأبواب الزجاجية المغبرّة للمدخل. والحال، كانت الحرارةُ أعلى هنا في الداخل، المبقّع بالظلال، منها في الخارج. كان الهواء كثيفاً، مشوباً بروائح حادة: معقمات، مياه مجارٍ، عرق، وأبخرة تنبعث من محوّل كهربائي.

"أهلا وسهلاً، سعادة السفير،" قال الدكتور، ممسكاً بيدي.

كان معطفه الأبيض نظيفاً، وشاربه مشذّباً جيداً، وعيناه براقتان. بدا من كل النواحي طبيباً قديراً، وحريصاً.

"صباح الخير،" قلتُ، مستخدماً التحية العربية الرسمية التي كان هيوم قد حفرها في رأسي ذلك الصباح. ساهمت محاولتي باستخدام لغتهم بظهور ابتسامات طافية على وجوه أعضاء الفريق الذي تجمّع للقاء بنا. لكنهم بدوا قلقين. موظفو الخدمة المدنية العراقية مثل هؤلاء الأطباء لم تكن لديهم فكرة عما ينتظرهم في مناسبات كهذه. مثل كل العراقيين، لقد عاشوا في عالم رجل واحد، له أمزجته الوحشية غالباً. وكان جزءاً من عملي أن أقنعهم، عبر الممارسة، بأنّ الأوقات قد تغيّرت حقاً. غير أنّ تهدئة قلقهم لم تكن سهلة طالما أنّ صدام وكبار المسؤولين البعثيين كانوا ما زالوا أحراراً.

"تفضّل،" قال الدكتور العنبكي، مشيراً بيديه المفتوحتين، مرحّباً، وقادنا إلى غرفة الزوار المخصّصة للمسؤولين رفيعي المستوى، حيث طاولة اجتماع مكسوة بغطاء باهت، لوّحته الشمس. كان هناك صفّ متوقّع من قناني الماء، وشراب صودا الليمون، والكؤوس الصغيرة المستخدمة لشرب الشاي.

وبعد حديث موجز، ضروري ومطلوب في الثقافة العربية، تحدّثتُ بوضوح وبطء، باللغة الإنكليزية، بعدما أُخبرتُ أنّ كبار الموظفين الجالسين حول الطاولة يعرفون اللغة. "ما هي حاجاتكم، المباشرة، يا دكتور؟ ماذا يمكننا فعله لمساعدتك أنت ومرضاك ...هذا الأسبوع، الأسبوع القادم ...الشهر القادم؟"

"حسنٌ، سعادة السفير، حاجاتنا متعدّدة، ونعلم أنّك وصلتَ للتوّ ..."

"كيف يمكننا مساعدتك الآن، دكتور؟من فضلك تحدّث بحرية."

أن يعبّر المرء عن أفكاره بصراحة وصدق، كانت بالطبع تجربة جديدة، ومقلقة، بالنسبة لهم. لكنّ العنبكي حاول. "سعادة السفير، المدينة ليست آمنة، لا في النهار ولا في الليل."

وأشار إلى الأبواب الزجاجية المفتوحة، عبر أرضية المستشفى، باتجاه شارع الرشيد، في قلب بغداد التجاري. "كان فريق عملي يمارس مهماته كل يوم طوال الحرب. أجرينا عمليات جراحية في الليل فيما كانت القنابل تنهمر. مشينا كيلومترات كثيرة لنصل إلى هنا، حتى عندما كانت الدبابات الأمريكية تطلقُ نيرانها. الآن "...

..."الآن، الشوارع خطرةٌ جداً، سيدي، "...قالت طبيبة معنا. كانت في الثلاثين من عمرها، نحيلة، ترتدي شالاً حريرياً ينسدل فوق معطفها الطبي الأبيض. "لم تكن الموظّفات قادرات على الالتحاق بعملهنّ في الفترة الليلية. كان المجرمون ...يأخذون أية امرأة يرونها وحيدةً في الظلام. لدي العديد من الطبيبات والممرضات يعشن ويقمن هنا الآن. لكننا جميعاً لدينا عائلات. سعادة السفير، إنّ الشوارع مستحيلة."

" أعدكم بأنّ الحالة الأمنية ستتحسّن. الآلاف من رجال الشرطة الأمريكيين، المدرّبين جيداً، سيصلون في غضون أيام. ما هي مشاكلكم الأخرى؟" سألتُ، متوجّهاً ثانيةً إلى المدير.

يتبع

مع رئيس مجلس ٩ نيسان ومغن صغير في الثاني من تشرين الاول ٢٠٠٣ قبل دقائق من اجهاض محاولة اغتيال بريمر

مع رجال الحرس الوطني العراقي اثناء التدريب